



مقدمة ما الذي ينمّي العقل؟

ما الذي ينمّي عند طفلك قدراته الباهرة على الحب والتفكير والتواصل والإبداع والسيطرة على النفس والتعاطف مع الآخرين؟ إن الكثير من النظريات التي تفسّر تطور الطفل تركز على جانب واحد فقط من هذه المعضلة كمورثات الطفل ومهاراته المعرفية، أو توجّد طريقةً جديدة لتحديد إمكانيات الطفل، لكن الحقيقة التي تعطي معنىً لكل مكونات هذا اللغز وتعرّف ابنك كإنسانٍ ذكي هي علاقته المستمرة معك. سنحاول في الفصول القادمة أن نوضّح أن كل الصفات الرائعة التي تتمناها لولده لا تأتي بالصدفة أو بالتخمين أو بالوراثة، وهي لا تحتاج إلى ساعات من البطاقات المضيئة وبرامج التلفاز التعليمية وتمارين التعلم المعتمدة على الكمبيوتر. ستكتشفُ بدلاً من ذلك ستّة خبرات أساسية تزيد من ذكاء طفلك وتُنمّيه عاطفياً. إن بعض هذه الخبرات الحيوية يمكن أن تمارسها بمتعة واسترخاء كجزءٍ من حياتك اليومية.

يتمنى معظم الآباء أن يصبح أبناءهم متعلمين ماهرين قادرين على قهر الصعوبات الأكاديمية، وأن يكون لديهم الرغبة في اكتشاف العالم من حولهم. إننا نريد أن يكتسب أولادنا القدرة على التعامل مع الآخرين بدفءٍ وحميمية وأن يتمتعوا بإقامة علاقات غنية ومُجزية كما نريد منهم أن يدركوا ما هو السلوك المناسب وأن يفرّقوا بين الصحيح والخطأ وأن يتمكنوا من التصرف بحكمة في الظروف الاستثنائية. ومن المؤكد أننا نريد أولاداً يفتخرون بأنفسهم ويملكون الإصرار والمرونة والقدرة على الإبداع. يبحث كثيرٌ من الآباء والمعلمين عن طرقٍ «يرفعون فيها السقف» أو يضاعفون من إمكانيات أولادهم دون أن يؤثر ذلك سلباً على عواطف الأولاد وسلامتهم.

إننا نفهم الآن كيف نتعامل مع الأولاد بأساليب تسهّل الوصول إلى هذه الأهداف الرائعة ونعرف كيف نقلّل من التصرفات التي يمكن أن تؤثر سلباً على تصرفات ومشاعر أبنائنا.

نستطيع اليوم أن نساعد أطفالنا على تجنب الإهمال والتصرف بعدوانية أو نزق وأن نضع بين أيديهم الأدوات التي تساعدكم على التحكم في سلوكهم. يستطيع أولادنا أن ينمّوا قدرتهم على إدراك الفروقات الدقيقة والتعامل مع الألوان الرمادية في الحياة بدلاً من التفكير بطريقة كل شيء أو لا شيء. إنَّ بإمكاننا مساعدة أولادنا على تجنب الأساليب العقيمة في التعامل مع المشكلات والمحاكمات المختلة والاكثاب وكل ذلك يؤدي إلى سلوك خطير يوقعهم في حبال الكحول والمخدرات والجنس. بل يمكننا أن نعلم أولادنا كيف يحوّلون التحديات إلى فُرصٍ لتنمية الذكاء والأخلاقيات والصحة العاطفية.

إن الطريقة التي نتعامل بها مع أطفالنا والتي تبني عقولهم بشكل سليم تؤدّي أيضاً إلى نموّ حقيقي في الاتصالات العصبية في أدمغتهم. ينمو دماغ الطفل بسرعة في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من عمره ويبلغ ثلثاً، أو ثلاثة أرباع حجمه عند البالغين خلال تلك الفترة.

لقد أثبتت الأبحاث الحديثة أنَّ التفاعل بين الطفل ومن يعتني به ينمي الاتصالات في دماغه ويملاً الفراغات التي تحددها بصمته الوراثية. فعلى سبيل المثال لا تُعلَّم ابتساماتُ الحب والأصواتُ والحركاتُ اللطيفة رضيعك كيف ينظر ويتنسم ويحب فقط، بل تنمي الاتصالات العصبية بين العصبونات الموجودة في مناطق معينة في دماغه مسؤولة عن الذكاء والمهارات الاجتماعية. إنَّ لمستك الحانية لا تنمي قدرة رضيعك على الشعور بالقرب منك وحسب، بل تُطلق هرمونات نمو تمكّن جسده وعقله من النمو. لقد بيّنت الدراسات الرائدة التي قام بها تورستن ويسل وديشيد هوبل الحاصلان على جائزة نوبل على المراحل الهامة في تطور الدماغ المبكر أن إعطاء الرضيع الفرصة للنظر واستخدام حاسة البصر خلال مراحلهِ المبكرة ضروري لتمكين الطفل من فهم عالمه وسوف ينقص احتمال تعرضه لمشاكل في التعلم البصري.

ليست كل التجارب التي يمرُّ بها الطفل متساوية في قدرتها على إنماء عقله ودماغه. ففي إحدى الدراسات وجد أنه عندما ينشغل الأطفال بنشاط تعليمي يحرك عواطفهم فإن مناطق التعلم في أدمغتهم تكون شديدة الفاعلية، أمّا عندما يُكلّفون بمهام رتيبة ومملة أو عندما يُغرقون بالكثير من المعلومات فإنَّ هذه المناطق لا تعمل بشكل مناسب. إن التجارب المريدة التي يمرُّ بها الطفل يمكن أن تبني داراتٍ في دماغه تعوق نمو عقله. بما أن التجارب المبكرة التي يمرُّ بها الطفل تعمل كطريقٍ ذي اتجاهين فمن الأهمية بمكان أن نعلم أيَّ التجارب تبني في أطفالنا القدرات التي نريد بناءها. لقد حدّدنا خلال خمس وعشرين سنة من الملاحظات والأبحاث ستَّ خبراتٍ أساسية سنشرحها بالتفصيل وسنشرح ما تحقّقه من نمو عند الأطفال في الفصول القادمة.

خلال الأشهر الأولى من عمره سيتمكّن طفلك من تنظيم نفسه بهدوء وهو يتأمّل ويتمتع بما توفّره له من أصوات ومناظر ومذاقات ولمسات. إن

ذلك سيساعد طفلك على تنظيم استجاباته الحسية والحركية وعلى بناء شعور عميق لديه بالأمان.

أثناء المرحلة الثانية من التطور عندما يكون طفلك بين الشهر الثالث والسادس من عمره ستنمو عنده - القدرة على الانخراط في علاقة حبّ حميمة معك وسوف يشعر شيئاً فشيئاً بالدفع والمتعة وكل تلك المشاعر التي ستندفق من ارتباطكما معاً.

ببلوغه الشهر التاسع يكون طفلك قد وصل إلى المرحلة الثالثة من التطور حيث يستطيع أن يخاطبك بواسطة التعابير ويستطيع بمساعدتك أن ينسج المزيد من التعابير العاطفية والأصوات والأفعال مع بعضها البعض.

إن الحركات الطريفة التي يمكن أن تبرز على وجهك والأفعال التي تشدّ الطفل كإخفاء لعبته المفضلة بيدك، سوف تلهمه أن يطور منطّقه الخاص به وتزيد قدرته على التواصل في اتجاهين أكثر من أيّ لعبة تعليمية أو كتاب صور.

عندما يبلغ الطفل السنة أو السنة والنصف سوف يتعلّم حلّ مشاكل اجتماعية معقّدة. سوف يمسك بيدك ليحملك على مساعدته. وخلال المرحلة الرابعة من التطور سوف يبدأ بفهم الطريقة التي يتحرك بها العالم من حوله وربما ينطق بكلماته الخاصة ليعبر عما يجول في نفسه وعندما يمسك بيدك ويشير إلى الخزانة للحصول على لعبته يكون قد بدأ محاولته الأولى في حل المشاكل الاجتماعية، وعندما تشيرين إليه ببيدك فإنه يتحرك لتقومي بحمله ليكون قادراً على التقاط لعبته بنفسه، إن طفلك بذلك لن يكون مسروراً وفخوراً فحسب بل سيكون في طريقه ليصبح عالماً ناشئاً. لقد تعلم طفلك أن المشاكل تُحلّ باتباع عدة خطوات متداخلة وأن العالم بما فيه الأمور المحيطة به وشخصيته وشخصيتك مكوّن من أنماط. لا يمكن لأيّ لعبة ملوّنة أو برنامج كومبيوتر يصدر أصواتاً وألواناً متنوّعة أن يُعطي طفلك

دروساً في حلّ المشاكل كذلك الدروس التي يتعلمها الطفل من خلال لعبك معه ودخولك في حوار معه بواسطة الإيماءات المختلفة.

أما الخبرة الأساسية الخامسة التي يمكن لك ولطفلك أن تتشاركا في ممارستها فهي تتضمن استخدامه للأفكار وهو يكتشف قدراته الإبداعية. سوف تنمو هذه القدرات عندما تلعبين معه لعبة الملك والملكة أو لعبة القط والفأر، وتتركي له اختيار الدور الذي يريد تمثيله إن ذلك سيفيده أكثر بكثير من اللعب بمجموعة من الألعاب أو ترتيب قطع صورة متناثرة إلى بعضها البعض.

إن المرحلة السادسة أو الخبرة الأساسية السادسة تتضمن بناء جسور منطقية بين الأفكار أو التدريب على التفكير التحليلي ويتطلب ذلك أكثر من لعبة محكمة التفصيل إذ يجب الدخول مع الطفل في نقاش حول وقت النوم أو الحلول التي يجبها وسؤاله عن آرائه. إن سؤالاً مثل قولك (لماذا تريد الخروج من المنزل؟) سوف يعلم طفلك كيف يربط أفكاره مع بعضها وكيف يكون مفكراً منطقياً أكثر من تعليمه الحروف والأرقام.

في دراسة أجريت بالتعاون مع آرنول ساميدوف من جامعة ميتشيغان تبين أن الأطفال الذين يتلقون دعماً صحيحاً والكثير من هذه التفاعلات العاطفية تكون فرصتهم في التمتع بذكاء عادي أو فائق أكثر بعشرين مرة من الأطفال الذين لا يتلقون دعماً مماثلاً. كما وجدنا أيضاً أن تأمين هذا النوع من الخبرات للطفل سوف يساعده على تطوير ذكائه وصحته العاطفية حتى عندما يجابه تحديات كبيرة.

إن هذه الخبرات الأساسية الست وما ينبثق عنها من مراحل نموّ الذكاء والعاطفة توازي نمو أجزاء معينة من الدماغ. وسوف نناقش هذه التوازيات المهمة في الفصول القادمة ونلخصها في جدول موضوع في الملحق الثاني. بما أن تمكن طفلك من هذه الخبرات الأساسية الست ضروري لنموه على

جميع الجبهات فإننا أرفقنا الكتاب بأسئلة عن تطور الطفل الوظيفي وجدول عن تطور الطفل الوظيفي (الملحق الأول) ويمكن استخدامها لمعرفة نقاط العلام التي يجب أن يتجاوزها طفلك أثناء تطوره ومقارنة تطوره بدرجة التطور المقبولة.

إن جدول تطور الطفل هذا يختلف عن جداول التطور التي تهتم فقط بنقاط العلام الحركية واللغوية والمعرفية. إن جدولنا الجديد يبين كيف سيستخدم الطفل كل مهاراتة العقلية والعاطفية معاً لكي يلبي حاجاته ويحل مشاكله. وفيما إذا كان «فريق» إمكانياته العقلية يعمل بشكل متكامل وكيف تتطور مكونات معينة في ذكائه.

سوف تستطيع من خلال الجدول والأسئلة الملحقة به أن تحدد إنجازات طفلك وهل هي فوق أو تحت الخط المقبول. إن هذه أداة نافعة سوف تنبّهك وتنبه الطبيب الذي يشرف على طفلك ومعلمه إلى مجالات التطور التي يُولي فيها طفلك بلاءً حسناً وتلك التي تحتاج إلى مزيد من الدعم.

على الرغم من الأدلة الواضحة على أهمية التجارب المبكرة إلا أن البعض يعتقد أن التجارب المتأخرة لا تقل أهمية عنها. على كل حال هم لا يقللون من أهمية التجارب الست الأساسية المبكرة التي ذكرناها سابقاً والتي تمكن الطفل من ربط وقراءة الروابط الاجتماعية والتفكير من خلال المواقف (يحتاج ذلك إلى سنوات من العلاج فيما بعد) والقيم والمهارات الأكاديمية التي سيحصلها خلال حياته. يعتقد آخرون أن المورثات أكثر أهمية من التجارب التي يمر بها الطفل. إن معظم الأبحاث حول التوائم المتماثلة يعثرها الخلل لأن التوائم يتشابهون في أشكالهم وأمزجتهم وبالتالي يحرضون استجابات متماثلة ممن يربّاهم. وبما أن المربين النموذجيين يتشابهون في استجاباتهم لصفات جسميّة أو مزاجية معينة فإنهم سيتعاملون مع هؤلاء

التوائم بنفس الطريقة ولو تَمَّت تربيتهما بشكل منفصل. إن التشابه بين التوائم يعود إلى التشابه في أنماط التعامل معهم أكثر من العوامل الوراثية وهذا الاحتمال لا يأخذه بعين الاعتبار أولئك الذين يجرون دراسات عن تأثير الوراثة على السلوك.

لقد بيَّنتُ أبحاثنا السريرية أنه كلما كانت قدرات الطفل البيولوجية تشكّل تحدياً له كلما كان تأثير البيئة المحيطة به على تطوره أكبر. على سبيل المثال إذا كان الطفل يشكو من ضعف عضلي وكان قليل الاستجابة للأصوات والمناظر والإيماءات العاطفية التي يقوم بها مربّوه فإننا نستطيع تنميته اجتماعياً وعقلياً بشكل جيّد إذا وفّرنا لهذا الطفل عناية تتوفر فيها المحبة وتربية حيوية مفعمة بالطاقة.

كذلك وجدنا أن صفات الأطفال المزاجية غالباً ما ترتبط بمؤهلات جسدية كالحساسية للمسّات أو أصوات معينة.

على سبيل المثال إذا كان الطفل حساساً بشكل غير اعتيادي للصوت فإنه قد يسمع مواء القطّة وكأنه زئير أسد، إن طفلاً كهذا سيخاف من القطط أكثر من الطفل الذي يعالج الأصوات بطريقة طبيعية. لكننا نستطيع أن نعرّض الطفل الحساس للأصوات إلى طيفٍ واسع من الأصوات في الوقت الذي نزوّده فيه بالكثير من الدفء والتشجيع ونستطيع في الوقت ذاته أن نشجعه على أن يكون حازماً جريئاً وأن يتناول للحصول على لعبته وأن يتصارع معنا بمرح بدلاً من أن يتركنا نحرك أطرافه بشكل سلبي عندما نتشاجر معه. إذا قمنا بشكل مستمر بتقوية روح الحزم عنده ووفّرنا له المزيد من الشعور بالأمن عند تعرضه لتجارب تبعث الخوف في نفسه سيستطيع في النهاية أن يصبح مندفعاً وواثقاً، وأن يحافظ في الوقت ذاته على الجانب الإيجابي من حساسيته كالقدرة على التعاطف والاعتناء بالآخرين.

لقد طبقنا هذه المبادئ على أطفال يعانون من مشاكل في قدراتهم

الحركية واللغوية والمعرفية والاجتماعية بما في ذلك الأطفال المصابين بداء التوحد. لقد دهشنا من الطريقة التي تُمكنُ بها التفاعلات التعليمية المبدعة الأطفال الذين يعانون من مشاكل كبيرة من النمو والتطور إلى درجةٍ لم نكن نتخيلها وذلك اعتماداً على الطريقة التي تقوم فيها الجملة العصبية لكل طفلٍ باستقبال التجارب التي يتعرض لها وتنظيمها ثم الاستجابة لها. لقد أصبح الكثير من هؤلاء الأطفال أكثر دفئاً وشعوراً بالحبّ وقدرةً على التواصل وأكثر ذكاءً.

لا يمكن بالطبع تعديل كل نمطٍ بواسطة تفاعلٍ معين مع البيئة. لقد وجدنا بالخبرة أن الكثير من السلبيات في سلوك الطفل يمكن تحسينها وتقوية الإيجابيات بتوفير تجربة تفاعلية مناسبة لتركيبه الطفل الجسمانية الخاصة به.

إن ذلك يعني أنه على الرغم من أن طبيعة الطفل البيولوجية قد تحدّد بشكل مبكّر شكل التفاعل بينه وبين والديه إلا أننا نستطيع بتعديل أسلوب تعامل والديه معه أن نؤثر على النتائج بشكل كبير لأنّ المورثات لا تستطيع أن تعبّر عن نفسها إلا إذا توفّرت لها بيئة ملائمة. إن معظم الأبحاث الحديثة تشير إلى أن تعبير المورثات عن نفسها يعتمد على تفاعلها مع عدة بيئات بما في ذلك بيئة الخلية والجسد والوسط الاجتماعي والعالم المحسوس، وتحدّد هذه التفاعلات الطريقة التي نعمل بها. إن الطبيعة والتربية تتفاعلان مع بعضهما لعزف سيمفونية التطور عند الطفل.

إن التفسيرات الأسرة ذات البعد الواحد مثل «كلّه موجود في المورثات»، «البذور السيئة»، «كلّ ما يحتاج إليه الأطفال هو المزيد من العقوبات»، «البيولوجيا هي القدر» قد تشدّنا ببساطتها المغرية لكنها غالباً ما تؤدي إلى حلول ضعيفة وتزيد من التحديات عندما يصادف الطفل تحديات معينة.

إنّ ما يشيع حديثاً في وسائل الإعلام من أنّ الأصدقاء يؤثرون على

شخصية الطفل أكثر من الآباء هو مثال آخر على أسلوب في التفكير قصير النظر، فعلى الرغم من أهمية العلاقات بين الطفل وأصدقائه إلا أنها تُبنى على التجارب المبكرة التي مرَّ بها الطفل مع والديه. إنَّ الطفل يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين ويتواصل معهم بناءً على هذه التفاعلات المبكرة بينه وبين من يربيه. لقد لاحظنا من خلال الممارسة أن كثيراً من الأطفال الذين لا يستفيدون من تفاعلات تربوية مبكرة مع آبائهم يعانون من صعوبات في تكوين الصداقات. إن الكتب الحديثة التي تركز على أنواع الذكاء المختلفة أو الذكاء العاطفي أو التطور الأخلاقي تلعب دوراً كبيراً في توضيح أساليب التعليم المختلفة التي يمكن أن يطبقها الآباء على أولادهم.

نحن قادرون اليوم على مساعدة الآباء على تحريض النمو العقلي والأخلاقي والاجتماعي عند أولادهم بشكل فعال وبطريقة متكاملة. إننا عندما نمكِّن كلَّ أفراد «الفريق» العقلي للطفل من العمل معاً نستطيع مضاعفة قدراته. نلاحظ دائماً تأثير التقوية غير المتكاملة عند الأطفال الموهوبين الذين يملكون قدرات خارقة في الشطرنج أو البيانو أو الرياضيات لكنهم ضعيفون أو يعانون من صعوبات بسبب عدم قدرتهم على التفكير بعمق في النواحي الأخرى أو بسبب كونهم غير ناضجين عاطفياً.

لقد بدأنا نفهم أن معظم إمكانيات الطفل العقلية والاجتماعية بما في ذلك قدراته على الإبداع والتفكير التجريدي ليست متعلّقة ببعضها وحسب بل تعتمد أيضاً على أسس مشتركة تتضمن العواطف. لقد ازداد انتباهنا إلى هذا الأمر عندما درسنا أطفالاً يتمتعون بوعي قوي بذواتهم وبمهارات فكرية جيدة وأدركنا أن هؤلاء الأطفال يملكون نظرة إيجابية إلى أنفسهم، ولديهم القدرة على المحاكاة الأخلاقية والتحليل المنطقي ومستواهم جيد في المدرسة وعلاقاتهم جيدة مع أصدقائهم. وعندما تحدثنا مع هؤلاء الأطفال وأطفال آخرين يملكون صفات معاكسة لصفاتهم وجدنا أن الذكاء والمهارات الاجتماعية والقدرات الأخلاقية تنمو عند الطفل بواسطة ستة أنماط من

التفاعلات العاطفية التي يتعرض لها في سنيّ حياته الأولى.

فعلى سبيل المثال عندما سُئِلَ مجموعةٌ من الأطفال في الثامنة من أعمارهم تمّ اختيارهم بشكل عشوائي عدداً من الأسئلة المجردة كسؤالهم عما تعنيه لهم كلمة العدالة كانت الإجابات معبرة كثيراً عن طريقة تفكير هؤلاء الأطفال. بعض الأطفال أجابوا بذكر قائمة من الأشخاص الذي يتصرفون بشكل عادل كأحد الوالدين أو أستاذ أو شخصية تلفزيونية معينة. لكنّ بعضهم كان يعطي أجوبة أكثر عمقاً كأن يقول «حسناً، عندما أضرب أخي لأنه ضربني سيكون من غير العدل أن تتمّ معاقبتي ولكن عندما أضربه أولاً سيكون من العدل أن أعاقب، إذا اصطدمت به بشكل غير مقصود ليس من العدل أن أعاقب أما إذا فعلت ذلك عمداً فمن العدل معاقبتي».

لم نفاجأ عندما درسنا هاتين المجموعتين من الأطفال عن قرب، فوجدنا أن الأطفال الذين قدموا قائمة روتينية كانوا يعانون من مشاكل في علاقاتهم وفي نشاطهم المدرسي، أما الأطفال الذين كانت أجوبتهم أكثر إبداعاً وعمقاً كان أدائهم أفضل في النواحي الاجتماعية والعقلية.

عندما نظرنا مرّة ثانية إلى الأجوبة الأكثر عمقاً وجدناها مكوّنة من قسمين. وينطبق ذلك على أي سؤال تجريدي سواء كان يتعلق بالعدالة أو الإخلاص أو الصداقة أو الحرية. المكوّن الأول لهذه الأجوبة هو أنها دائماً كانت تبدأ بقصة شخصية تتضمن تجربة عاطفية مرّ بها الطفل. المكوّن الثاني هو أنّ هؤلاء الأطفال وضعوا هذه التجارب ذات المفهوم المجرد ضمن إطار تحليلي.

عندما سألنا نفس السؤال فيما بعد في فترة المراهقة كان هؤلاء الأطفال قادرين على إعطاء المزيد من التصنيفات (خمسة أنواع من العدالة على سبيل المثال) وسبك الإطار التحليلي بالفاظ أكثر حكمة، ولكن في كل مرّة وفي كل سنّ كان هناك مكوّنات موجودان في الأجوبة الأكثر تعقيداً وهما: تجربة

عاطفية مرَّ بها الطفل وإطار أو سياق. إن الأطفال الذين لم يمرُّوا بالكثير من التجارب العاطفية - سواء بسبب التربية أو مشاكل بيولوجية أثَّرت على تفاعلهم كصعوبة في اللغة - كانوا أولئك الذين أجابوا بقائمة جامدة بدلاً من ذكر قصة شخصية. لقد وجدنا أن أفضل طريقة لتعليم هؤلاء الأطفال التفكير التحليلي هي إعطاؤهم الفرصة للتعرض للمزيد من التجارب العاطفية والتفكير فيها. لقد لاحظنا أنه حتى الأطفال الذين يعانون من مشاكل كبيرة في التطور كالأطفال المصابين بالتوحد قد يصبحون أكثر قدرة على الإبداع والتفكير العميق عندما يُعرَّضون لما هو أكثر من التفاعلات القائمة على أساس (شيء مقابل شيء) من قِبَل من يعتني بهم.

لقد أصبح من الواضح أنَّ هناك أنماطاً معينة من التجارب العاطفية ضرورية لإنشاء الأفكار المجرَّدة - وتطوير التفكير عند الأطفال. إن هذا المفهوم البسيط قد تمَّ إهماله فعلى مدى مئات السنين سادَ في الثقافة الغربية أن العواطف منفصلة عن الذكاء.

لقد ظننا سابقاً أن العواطف هي ارتكاسات جسدية أو مشاعر تؤدِّي بنا إلى التفكير بشكل غير منطقي وأن الذكاء هو الجزء المنتبه من عقولنا الذي يساعدنا على التفكير المنطقي والإدراك الصحيح للعالم المحيط بنا. لقد بيَّنت ملاحظتنا الجديدة أن التفاعلات العاطفية تؤثر تأثيراً كبيراً على ذكاء الإنسان وهي تساعدنا إلى حدٍّ أبعد مما ذهب إليه هوارد غاردنر في وصفه لأنواع الذكاء المنفصلة أو أنطونيو داماسيو الذي بيَّنت أبحاثه أن العواطف مهمة في المحاكمة لكنها منفصلة نوعاً ما عن القدرات الأكاديمية والذكاء بشكل عام.

حتى جين بياجيت الرائد في مجال علم النفس المعرفي قد أهمل هذه العلاقة الحيوية بين العواطف والذكاء. لقد لاحظ بياجيت أنه عندما يتعود طفل عمره ثمانية أشهر على شدِّ خيط متصل بجرسٍ وسماع صوت الجرس

فإنه سيتوقف عن شدّ الخيط إذا فصلَ عن الجرس . بالنسبة لبياجيت هذا السلوك يدل على أن الطفل يفكر بشكل سببي لأنه يشد الخيط فقط إذا أدى ذلك إلى سماع صوت الجرس . على الرغم من صحة ملاحظة بياجيت إلا أنه لم يدرك أن ذلك لم يكن فرصة الطفل الأولى في تعلم التفكير السببي لقد بدأ الطفل بتعلم هذا التفكير قبل عدة أشهر عندما كان يهزُّ بابتسامته قلب أمّه وأبيه فيردّان عليه بابتسامة أو تعبير بالسرور . ثم قام الطفل بعد ذلك بتطبيق هذا الدرس العاطفي على العالم المادي من حوله بشد الخيط المتصل بالجرس وهكذا . . .

في كل مرحلة من مراحل التطور وجدنا أن التفاعلات العاطفية كأَن تؤدي ابتسامة الطفل إلى معانفته سوى تمكّن الطفل من فهم الطريقة التي يعمل بها العالم وبالنتيجة ستنمّي عنده القدرة على التفكير وحل المشاكل والتغلب على الصعوبات الأكاديمية .

إن العواطف في الحقيقة هي المهندس الداخلي وهي الموصلات والمنظمات التي تنظم عقولنا . إنها تخبرنا كيف نفكر وماذا نقول ومتى نقول وماذا نفعل . إننا نعرف الأشياء من خلال انفعالاتنا العاطفية ثم نطبق التفكير المنطقي على هذه المعرفة .

لنضرب بعض الأمثلة على هذا التفاعل بين العقل والعاطفة لنفرض أن طفلاً تعلّم كيف يقول «مرحبا» عندما يحيي الأشخاص الآخرين إن الطفل لا يتذكر قائمة بالأشخاص المناسبين للإلقاء التحية عليهم إنه ببساطة سيحيي أولئك الأشخاص الذي يشعر تجاههم بالدّفء والصدّاقة من خلال تعابير وجوههم . أمّا إذا التقى بأشخاص شعر تجاههم بالخوف فإنه سيدير وجهه أو سيختبئ بين رجلي والده .

إن المشاعر هي التي تؤثر على قرار طفلك في أن يحيي أو ألا يحيي شخصاً غريباً . إننا نشجّع هذا النوع من «التفريق» لأننا لا نريد لأطفالنا أن

يقولوا «مرحباً» لشخصٍ خطيرٍ قد يصادفونه في الشارع الخلفي في حين نريدهم أن يقولوا ذلك لأشخاصٍ لطفاء كجدتهم مثلاً. إذا لم يُقل طفلك «مرحباً» لجَدَّتِه معنى ذلك أنه لا يشعر تجاهها بمشاعر دافئة وإذا عَلَّمنا الجَدَّة كيف تحرّض هذه المشاعر الدافئة داخلَ حفيدها سوف تحصل في النهاية على تحيةٍ منه مقابل ذلك.

وهكذا إذا تعلم الطفل كيف يحيي أولئك الأشخاص الذين يُشعرونه بدفءٍ داخلي فإنه سيقول «مرحباً» بسرعة لمعلّمٍ محبّبٍ أو صديقٍ جديدٍ وسيحمل مشاعره معه وسيعمّم الحالات المعروفة على حالات جديدة كما أنه سيعرف كيف يقرّر متى وماذا يقول. إن التفاعلات العاطفية المبكرة لا تؤدي إلى نمو التفكير فقط وإنما تنمّي الإحساس الأخلاقي بالخطأ والصواب. إن القدرة على فهم مشاعر الآخرين والاهتمام بها لا يمكن أن تنمو إلاّ من خلال سلسلة من التفاعلات التربوية التي سنصفها في الفصول القادمة.

حتى الأمور الأكاديمية والمعرفية الصرفة كالرياضيات والمفاهيم الكميّة تعتمد على التفاعلات العاطفية المبكرة. إن «الكثير» بالنسبة لطفل عمره ثلاث سنوات معناه أكثر مما يريد و«القليل» معناه أقل مما يتوقع - ثمّ تقوم الأرقام فيما بعد بتصنيف هذا الشعور بالكمية. إن الأطفال الذين يعانون من مشاكل في تعلم الرياضيات يمكن مساعدتهم بالعودة إلى الجذور العاطفية الأولى لتعلم الكميّة. وبشكل مشابه يتم تعلم مفهوم الوقت والفراغ من خلال التجارب العاطفية المبكرة كانتظار الأم أو البحث عنها والعثور عليها في غرفة أخرى.

كذلك الكلمات تأخذ معانيها من التفاعلات العاطفية كما بيّن المثال الذي سُئل فيه الأطفال عن معنى كلمة «عدالة» إن هذه الكلمة تكتسب مضمونها ومعناها مع كل تجربة عاطفية جديدة يشعر فيها الطفل بالعدالة أو الظلم.

إن شرح كلمة «تفاحة» يعتمد على عدة تجارب عاطفية تشمل أكل تفاحة وإلقاء تفاحة إلى معلّمك إضافة إلى صفاتها الفيزيائية كاللون الأحمر والشكل المكوّر.

حتى استخدامنا للقواعد كما يعتقد عالم اللغات نعوم تشومسكي وغيره يحتاج إلى أنماط عامة من التحريض الاجتماعي ويعتمد على تفاعلات عاطفية مبكّرة خاصة جداً. فقد وجدنا على سبيل المثال أن الأطفال المصابين بالتوحد الذين لا يستخدمون القواعد بشكل مناسب ويكررون كلمات معينة مثل (باب) و(طاولة) و(حليب) يمكن أن يتعلموا إذا ساعدناهم بشكل مقصود على الاندماج العاطفي وعندما يتعلمون كيف يمارسون ويعبرون عن مشاعر الرغبة والتمني (على سبيل المثال عندما يجرونا إلى الباب لكي نفتح له) فإنهم سيبدأون بترتيب الكلمات والأفعال بشكل مناسب (افتح الباب!).

لقد وجدنا نفس الأنماط عند الأطفال الذين رُبّوا في ميّاتم في أوروبا الشرقية أو في عائلات فقيرة في هذه البلاد حيث كان هناك القليل من الفرص لتحقيق تفاعل عاطفي مقصود مع الطفل.

وجدنا أيضاً أن الأطفال الذين يَنُمون في ظروف طبيعية يحتاجون إلى عدة فرص للتعبير عن رغباتهم وأمانهم من خلال تفاعلات مقصودة مع من يعتني بهم (مثل الابتسامة والابتسامة المقابلة والتأشير باليد) ليَطوِّروا سبكاً قواعدياً صحيحاً للكلمات والأفعال وهذه الصلة بين القواعد اللغوية والتجربة العاطفية لم ننتبه إليها في السابق.

لسوء الحظ إن التجزئة التي تميّز بها مجتمع ما بعد الصناعة دفعت الكثيرين منا إلى الاعتقاد بأن عقولنا مجزأة بنفس الطريقة.

إذا أردنا أن نعرّف أطفالنا بأمرٍ ما فإننا نوَقِّر لهم حقائق فمثلاً إذا أردنا أن نعلم طفلاً ما الحب نقول له «نحن نحبك» أو نعانقه - كما نفعل تماماً

عندما نهّم بشراء قميص إذ نذهب إلى محل الألبسة ولم نعد نتذكر كيف نزرع الكتان ونحصده ونحوّله إلى خيوط ثم ننسج منها قماشاً ثم نخيط قميصاً من القماش. لقد نسينا أن بناء عقول سليمة ومبدعة في أطفالنا ليست عملية مؤلفة من خطوة واحدة كما نفعل عند شراء قميص وكما أن قيمص الكتان الذي ترتديه تبدأ جذوره في بذور الكتان المزروعة في التراب كذلك شخصية طفلك تنمو من خلال مزيج من التفاعلات بينك وبينه.

كلّما شجّعت النمو المتكامل لعقل ودماع طفلك كلما نجحت في بناء الأرضية التي ستجعل من طفلك رجلاً ذكياً ومنطقياً واجتماعياً ومتعاطفاً مع الآخرين. إن هذه الصفات المهمة تنبع من التربة الخصبة التي توفرها له من خلال تفاعلِكَ معه. ستجد عند قراءة هذا الكتاب أننا لن نطلب منك أن تعقّد حياتك بالمزيد من النشاطات خارج المنزل أو بتمارين تحرّض القدرات المعرفية وتشغلك أكثر مما أنت مشغول. إننا نأمل أن نلهمك ست خبراتٍ تشركين فيها مع رضيعك أو طفلك في بناء العقل السليم.

هذه الخبرات الأساسية التي يحتاجها طفلك تملك جذوراً في تاريخ تطورنا البعيد. إذا قارنا الإنسان مع الكائنات الحية الأخرى سنجد أن الإنسان يقضي فترة طويلة نسبياً معتمداً على غيره فهو أكثر الحيوانات - تأخراً في المشي على سبيل المثال. إن الفترة الطويلة التي يظل فيها الإنسان معتمداً على غيره تعطي دماغه وعقله الفرصة للنمو بشكل هائل لكنها تحمّلنا مسؤوليات إضافية. يجب أن نعتني بأطفالنا بشكل مناسب وأن نستعين على ذلك بمربين آخرين غيرنا ولفترة طويلة من الزمن. لدينا هنا أمران: فرصة رائعة والتزام بتعميق وتوسيع تفكير وعواطف أولادنا أثناء اعتمادهم علينا قبل أن ينطلقوا في رحاب الحياة. يحتاج أطفالنا إلى الرعاية والتفاعل مع نفس المربين (بدلاً من تغيير المربي) لفترة طويلة من النهار وأحياناً الليل. إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن الأطفال يتقدمون بأفضل شكل ممكن عندما نوفر لهم تفاعلاً مع من يعتني بهم لفترة لا تقل عن نصف فترة استيقاظهم وذلك

خارج ساعات المدرسة وما زلنا كمجتمع عاجزين عن تأمين هذه الحاجة.

لماذا يقصّر الكثيرون منا في العناية بأطفالهم والتفاعل معهم؟ يقع جزء، من الإجابة في أننا غالباً ما نركز في ثقافتنا على الجزء التنافسي والحازم في طبيعتنا وهو الجزء المهم الذي يساعدنا على السيطرة على الطبيعة وتنمية اقتصادنا والنجاة من الفناء لكن هذا - تركيز - أحادي على جانب واحد من القدرات التي نَمّاها فينا التطور وإهمال جانب العناية وهو الجانب الأكثر طراوةً من إرثنا التطوري وهو الذي يمكننا فعلياً من السيادة.

يجب ألا نهمل حاجة أطفالنا إلى العلاقة الحميمة والعناية والتفاعل مع الآخرين وأن يكون ذلك جزءاً من تعريفنا للحياة العائلية القويمة. إننا نستطيع أن نزيد من قدرة أطفالنا على التنافس والسيادة عندما نوفر لهم باستمرار العناية والتفاعلات العاطفية.

هذه الخبرات العاطفية تنشئ أشخاصاً قادرين على بناء مجتمعات معقدة ومتعاونة وسوف تمكن أولئك الذين سيتبعوننا من تطوير أدوات التفكير المنطقي والتعبير عن الذات والتعاون مع الآخرين تلك الأدوات التي سيحتاجها أطفالهم لمواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين.

ستكون الأجيال في المستقبل سلبية ومنطوية على ذاتها أو مُستَقطَبة وعدائية أو تنقصها القدرة على التأثير في حياتها وتقبل الأفكار الجديدة بثقة. سنعيش في عالم يصفه يتيس بأن «الأشياء تطير منفصلة ولا يستطيع المركز الإمساك بها» وكلّما نجحنا في بناء طفل ذي عقل سليم نكون قد ساهمنا في صنع مجتمع يعمل بسلاسة وديموقراطية وتفاؤل وناجح اقتصادياً، ونزيد بذلك من احتمال أن يكون عالم الألفية الجديدة مكوّناً من أشخاص يتعاطفون مع الآخرين ويعملون في مجموعات ويحققون الاختراقات ويتمتعون بذكاء عالٍ وقادرون على تنشئة أولادهم بعقول سليمة أيضاً.